٢٥- الإيمان والعمل والجزاء

بعد أن وصف الله تعالى جزاء الظالمين في تركيز وإيجاز انتقل إلى وصف المؤمنين في تفصيل يحمل إلى النفس روح الجنة وريحانها. عدد الكلمات المحدود في وصف النار والعذاب كأنه نظرة عميقة جامعة سريعة. كأن بابًا فُتح فرأينا من ورائه صفحة العذاب ثم انتقلنا منه إلى باب آخر. باب كله خير ونور. هو باب النعيم.. باب على طريق،أوله الإيمان والعمل الصالح ،وغايته ومنتهاه. جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار.

ولنقرأ معًا ما جاء وصفًا للإيمان وجزائه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴾.

الربط بين الإيمان والعمل. وبينهما وبين الجزاء. قد يتأخر الجزاء. قد يأتى بصورة غير متوقعة. ولكن لايضيع عند الله أبدًا. قد يكون بعضه في الدنيا، وبعضه في الآخرة. أو كله في الآخرة كما يحدث مع الشهداء.. ولكن الله تعالى أخبرنا، أنهم وهم في جواره، وقبل القيامة، يحسون ويفرحون ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ويصف الله ما أعدّ لهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴾.

وفى وصف هذا الجزاء مسائل:

الأولى: لهم جنات.. والجمع يفيد التعدد والتنوع، يلتقى هذا مع قول الله تعالى ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ (السجدة: ١٧).

- وقوله ﴿ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ (الرحمن: ٤٦).
- ومرة نقرأ: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٣).

ففى آية نقرأ "جنة" ومرة نقرأ "جنتان"، ومرة "جنات"، ومرة هى "عدن"، ومرة "فردوس". لكل جنة ولكل جنة وأكثر.

((وعدن)) معناها الإقامة أو هى جنة هى جزء من الجنة الكبرى،جنة الجزاء..

المسأله الثانية ﴿ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ وتأمل في هذه الآية قول الله ((من تحتهم)) هذه الشبكة من الأنهار التى يراها كل من أسعده الله بالجنة. والنهر ليس مجرد ماء يجرى. إنه في دنيانا هذه: حركة متجددة. صورة. لون هدير. خرير. موسيقى من التدفق. ولازلت أذكر في زيارة لقصور الحمراء في غرناطة، وكيف صنع الإنسان – والإنسان مخلوق – كيف صنع من الماء موسيقى،لها سلم في تدفقها ،وكيف صنع منها حجومًا وأشكالاً.. تتناغم مع درجات لون الخضرة.. هذا في دنيانا.. ولقد كان الماء ولازال من أهم ما تغنى به الفنانون وبخاصة الفنان المسلم: النافورات. أماكن الوضوء في المساجد. إن قول الله تعالى: ﴿ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ تحمل من معانى الجمال والجلال ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. إن ربنا أعطانا – نحن البشر – جانبًا من القدرة على الإبداع.. وأرانا جوانب من الإبداع في خلقه، وهو سبحانه – بديع السماوات والأرض – ووراء كل جمال تصورناه جمال في دار الخلد والمقامة.

المسألة الثالثة: ﴿ تُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ ﴾.

وقفت عند هذه الآية وفيها ذكر الذهب والسندس والاستبرق؛ والسندس هو الحرير الرقيق، والاستبرق هو الحرير الصفيق أى السميك، والثياب خضرا والخضرة أكثر الألوان إراحة للنظر.. نحن نستبشر به يقظة ومناما.. وحتى في دعائنا ندعو الله أن يجعل الحياة خضراء، والخضرة رمز الشباب المتجدد. واللون في ذاته لغة..

نربط بين هذه الحلية من ذهب واللباس من حرير، وما جاء في آية أخرى في وصف حلية أهل الجنة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ (الحج: ٢٣ -٢٤). والآية تضيف اللؤلؤ إلى الذهب والحرير.

وفى آية سورة الإنسان. ﴿ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ﴾ (٢١) إضافة الأساور الفضية والشراب الطهور.

ونقف قليلا عند اللباس والحلية:

جاء في الحلية قول الله تعالى "يُحَلَّوْن". الفعل مبنى للمجهول من الذى أو الذين يحلونهم؟ هل تحليهم الملائكة؟ هل يحلى بعضهم بعضا ،أهلا وأصدقاء؟ كما يتهادى أو كان يتهادى أهل الدنيا الحلى؟ وما مصدر الحلى في الدنيا؟ البر والبحر. وما حلى البر؟ الذهب والفضة وما يلحق بها. وما حلى البحر؟ اللؤلؤ وما يلحق به. والحلى للتجمل. والتجمل تنوع في الحلى شئ من الفاكهة التى وصف الله أمرها وتناول المؤمنين لها في جنته فقال: ﴿ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ (الواقعة: ٢٠) وفى التخير إحساس بالجمال. إنه متعة ذهن وفكر قبل أن يكون متعة تناول.

أما اللباس فللستر والتجمل أيضا.. فهى تشترك مع الحلى في التجمل وتنفرد دونها بالستر.. والسندس والاستبرق يشتركان في أنهما حرير ويتباينان رقة وسمكا.

المسألة الرابعة: ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ ﴾ والأريكة في ذاتها ستر آخر. والأريكة سرير في حجلة. والحجلة ،بيت يزين بالثياب.. فالأريكة مكان جلوس واتكاء ،عليه ستر متى شاء صاحبه أرخاه، ومتى شاء كشفه وفى هذا مزيد من الحرية والتمتع.

المسألة الخامسة: ﴿ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴾ في هذا مقابلة ،مع ما جاء عن الظالمين وجزائهم ﴿ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴾ ومع المقابلة تباين: هناك بئس الشراب. وهنا نعم الثواب جاءت بئس وصفًا للشراب. ونعم وصفًا للثواب.

وفرق كبير بينهما. جزاء الظالمين حق وعدل. ولا يوصف الحق والعدل ببئس.. وإنما يوصف به طعامهم وهو من ضريع، وشرابهم وهو من حميم.. أما الثواب فيوصف بأنه "نعم" الثواب المتمثل في كل ما حولهم من ماء وظل وأنهار وشراب ولباس وحلى ورفقة ،وقلوب مبرأة من الغل، وألسنة حامدة شاكرة هذا كله "نعم الثواب.." ووراء كل خير زيادة هى من فيض الرحمن وفضله. ويعقب ربنا على هذا بقوله: (وحسنت مرتفقا) هذه الصورة كلها بتفاصيلها وزياداتها التى لا تقف عند حد بنعيمها ورفقتها = حسنت مرتفقا.

٢٦- حوار مع صاحب الجنتين

تأتى بعد هذا ثنائية أخرى. صورة من صور الدنيا بين اثنين: أحدهما سعيد بإيمانه ،والآخر بما بين يديه من متاع الدنيا.. ونحس نوعًا من التشابه- أقول نوعًا لا أكثر – بين ما جاء في وصف جنة الجزاء ،وما جاء في وصف جنة الاختبار والابتلاء.. ثم يمضي الأمر، فإذا الجحود يعصف بجنة الابتلاء، ويمضى الإيمان على طريقه السوي حتى يصل إلى جنة الجزاء التى لاتفنى ولا تبيد.

ولنقرأ معًا قول الله تعالى: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴾.

هذان رجلان. صاحبان. أو أخوان. لأحدهما جنتان وتستخدم الآية لفظ. جعلنا لأحدهما جنتين.. فهما من فيض الله وإرادته. والأفعال في وصف الجنتين كلها منسوبة إلى الله تعالى: " وحففناهما. وجعلنا بينهما زرعا. وفجرنا خلالهما نهرا. الجنتان وما فيهما من أعناب. النخل. الزرع وهذه ثلاثة. والأرض طيبة بدليل أن الجنتين مثمرتان. والماء متوفر، "وفجرنا" تفيد الكثرة والتدفق والجريان وكان له ثمر..، والثمر هنا تحمل معنيين: الأول ثمار الأرض نفسها وهى الأعناب والنخيل والزروع. أو أثمان هذه الغلات فالثمر هنا تعنى الغلات ذاتها أو أثمانها.

ومرة أخرى المقابلة بين الفقر والغنى. بين الفقر المصحوب بالإيمان والغنى المصحوب بالكفران. مرة أخرى نرى صورة المستضعفين من المؤمنين والمستطيلين

عليهم من سادة قريش وكبرائها. مرة أخرى ترى انتصار القرآن للإيمان حينما كان موقعه في المجتمع، وردعة للكفران وإن اغتر بالمال والجاه والسلطان.

وتتوالى الأمثلة تؤكد الخط الرئيسى في السورة، وهو الخط الأساسى في القرآن كله.. الانتصار للإيمان حينما كان.

يقول الله تعالى عن صاحب الجنتين: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾.

ونستحضر من مدخل القصة أمرين:

الأول قول الله في وصف أُكُل الجنتين: ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾ فالأرض والماء والزرع آتى أُكُله ولم يظلم منه شيئا. بينما صاحب الجنة. هو ظالم لنفسه. مقومات الزراعة سارت كما أراد الله لها أن تسير. وهذا الظالم انحرف عن الطريق الذى أراده الله فكان ظالما لنفسه.. فأصبح منذ أوائل القصة دون الماء والنبات.. دون الأرض التى يسير عليها، والتى يظن أنه مالكها والمتصرف فيها.

وظن أنه صاحب هذا كله، الصاحب الحقيقى والمالك، فقال:

﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾.

لقد ظلم الرجل الماضى والحاضر وها هو يظلم المستقبل ويتجرأ على غيب الله، فيحدد مصير الجنة – وأنها على الأقل – ستكون أطول عمرًا منه فلا يراها تبيد أمامه ولو تأمل قليلاً لرأى الأمر على غير ذلك:

هذه الأرض التى عليها يسير. كم من الأجيال عمرتها وزرعتها وملكتها من قبله، هذا الطين من أين جاء؟ هل حمله نهر من جبال بعيدة ثم أرسبه هنا؟ هل هو تفاعل بين الصخر الذى يقف عليه والهواء الذى يحيط به، والماء المتدفق من النهر. آلاف السنين تمر على هذه الأرض الهادئة الصامتة، وهى تستقبل أجيالا، وتودع أجيالا. يلقون فيها البذر فتثمر. ويشقون فيها القبور فيثوى فيها الناس جيلا بعد جيل حتى يقوم الناس لرب العالمين.

والماء المتفجر؟ من أين جاء؟ ما مساره في الأرض؟ إن كل الذى يراه صاحبها أن الماء يتدفق. والماء رحلته طويلة،تبدو هنا في قول الله تعالى: (وفجرنا) والتفجير اندفاع. والاندفاع ضغط. ما مسار هذا الماء؟ كل الذى يراه نهاية مرحلة في مسار الماء في باطن الأرض، وبدء مرحلة في مساره على سطحها. ولو تأمل قليلا هذا المسار لرأى فيه عجبا: هو يشرب بعض هذا الماء، وبهائمه تشرب قسما، والزرع يمتص قسما يحوله بعد هذا إلى جذور وسوق وأغصان وأوراق وأزهار وثمار، وجزء يعود إلى الأرض يرويها وجزء يتبخر فوقها، وجزء لنظافته وطعامه.. كيف تكوّن هذا الماء الذى جعل الله منه كل شئ حى؟ ونستطيع أن نتابع التأمل في النخيل والأعناب والزروع. ونتأمل في الثمر ـ وهو في بعض التفاسير ـ إما الثمار ذاتها أو أثمانها. وتحمل الآية أن الثمر هو المال والولد. فنرى الآية ((وكان له ثمر)) أى: وكان للرجل ثمر هذا بعد أن وصف الله الجنتين فالثمر هنا أمر مضاف إلى أكل الجنة وقد سبق ذكره، وكأن الله أعطى الرجل الجنة بنخيلها وأعنابها وزروعها ونهرها وأعطاه فوق ذلك مالا وولدا..

أى نعمة من هذه تستوجب من العبد لله شكرا. ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴾ (إبراهيم: ٣٤).

والإنسان هنا ليس كل إنسان. ولكن من الناس ظلوم كفار وهذا هو النموذج وسيأتى من بعده نموذج الرجل الصالح.

لم يقف هذا الظلوم الكفار عند نعمة واحدة من هذه النعم،إلا رأى أنه صاحبها لم يتأمل الماضى ولا الحاضر. وطغى على المستقبل فقال: ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴾ ؟! وهل تستطيع ياصاحب الجنتين أن تتحكم في عوامل الجو؟ هل تستطيع السيطرة على العواصف؟ هل تستطيع التحكم في جريان الماء المتدفق من النهر، وقد فجره الله لك؟ بل هل تستطيع التحكم في أنفاسك أنت وتردد الهواء في صدرك؟ لا.. ولكنه الطغيان الذى اندفع هذا الظالم في تياره وهو يظن أنه مسيطر على التيار، واندفعت من فمه كلمة غليظة يتحدى بها نظام الكون كله فقال ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ ﴾ وأنت تحس الشطط البعيد والكفران والجحود في هذه الجملة؟ ما دخلها في حوارك أيها الظالم الكفور؟ وما الذى

أدخل الآخرة في الحوار، وأنت واقف في جنتك تظن وأنت فيها أنك صاحبها؟ ولكنه الغرور والبغى..

ولا يكتفى بإنكار الآخرة، فقد تحدث، فما عندك أيها الظالم إذا حدثت؟ لقد أعد جوابه: إننى هنا أهل للجنة وعندى بدل الجنة جنتان. حولهما النخل وفيهما الأعناب والزروع وعندى المال والولد. فأنا متعود على هذا النعيم. فإذا جاءت الآخرة أخذ الله أهل النعيم الدنيوى ليكونوا سكانا للنعيم الأخروى! أرأيت أو سمعت جحودا أو جنونا أشد من هذا؟ إن هذا الظالم يريد أن يشرع للآخرة لائحة تسير عليها. واللائحة عنده بسيطة؛ أغنياء الدنيا وأهل النعيم فيها مدربون على الحياة في النعيم، فهم أولى بالجنة. أما هؤلاء الفقراء فماذا يصنعون في الجنة الأخروية؟ وهم لم يروا ولم يتمرسوا بشيء من جنّات الدنيا ونعيمها؟ هكذا قال، وهكذا أخذ الظالم يشرع حتى في نظام الحساب يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وانظر كيف تدرج به الكفر والجحود من ظلم نفسه إلى الجرأة على الماضى والحاضر، إلى الجرأة على المستقبل، إلى إنكار الحساب الأخروى، ثم إذا افترض وجود حساب فقد أعدّ له هو الذى أعد قاعدة الحساب ليسير عليها اليوم الآخر.. تعالى الله عمّا يقولون علوًا كبيرًا.

بلغ هذا الظالم آخر المدى.. وقبل أن نذكر رد صاحبه المؤمن نقف عند كلمة في القصة وهى كلمة (جنة) وهى تحمل هذا الاسم لأنها تجن صاحبها أى تستره. ومادة (جن) أى ستر. نستطيع أن نتابع هذه المادة في اشتقاقاتها: المجن هو الذى يستتر به المحارب. الجن خلق مستور غير الإنس والإنس يقتضى الظهور. وجن الليل إذا ستر الوجود. والمجنون من كان عقله محجوبًا أو مستورًا لا تظهر آثاره.. فقول الله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ الجنة هى التى تستره هى أكبر منه. إذا دخلها غاب فيها واستتر. هو أصغر منها وهو فيها مستور. ألم يكن يكفيه هذا المشهد ليعلم أن جزءًا ضئيلاً من خلق الله، وهو هذه الجنة، قادر على ستره فلا يراه أحد. وأنه عند دخول الجنة هو الأصغر لا الأكبر، هو المستور لا الساتر ولكن فوران البغى.. رأسه ذهب به بعيدًا حتى إلى جحود الآخرة وما هو أكثر من الجحود هو وضع نظام لتوزيع جزائها بين الأغنياء والفقراء دون نظر إلى الإيمان والجحود.

ننتقل إلى الآية التالية ونرى فيها قول صاحبه المؤمن ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾

وصاحبه تفيد الاقتراب منه،ومحاولة استمالته بالحجة والبرهان. ثم قول الله تعالى: (وهو يحاوره)

تدل على المحاولة واستمرارها. وتحمل الآية أيضًا وقوف الصاحب خصمًا في الرأى لهذا الظالم لنفسه.

والأصل في الكلمة (حَوَر) ومنها الحوار ـ وهو فصيل الناقة ـ لأنه يعود إليها آمنًا ورضاعا كلما ابتعد عنها. ومما قيل في معنى الحواريين "أصحاب عيسى"، عودتهم إليه والتفافهم حوله.

قال هذا الصاحب الصالح لذلك الظالم: ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ وهذا استفهام إنكارى لأن الصاحب كان يعلم أن صاحبه مشرك بدليل قوله: ﴿ وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾.

وكلمة كفرت تحمل أنك تعرف حقيقة الإيمان ولكنك تؤثر البغى والتعدى. ومادة (كفر) معناها غطى. ولهذا سمى الزارع كافرًا لأنه يكفر البذر في الأرض أى يضعه ويدسه فيها. وبهذا نفهم قول الله تعالى ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾ أى الزراع.. وهم الذين تَتَبّعوه من وقت أن كان بذرة حتى أخرج شطأه واستوى على سوقه.. وكأنه يقول له: أزل هذا التراب الذى يغطى الإيمان. تراب الغرور الذى انهال على قلبك وأعد إلى قلبك نقاءه وصفاءه. فأنت أيها الظالم من تراب هذه الأرض. الفرق الرئيسى بينكما أنك من (نطفة) وبقى التراب ترابا ومن النطفة استويت رجلا. ومن غير النطفة بقيت الأرض أرضا وبالبذرة صار جزء من الأرض نباتا.. والكل من التراب وغذاه الماء.. وأعلن الصاحب إيمانه بكل قوة قائلا.

﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾.

كل ما في الكون أمامى مادة إيمان لا مادة كفران.. والآخرة خير وأبقى.

٢٧ – إعلان الإيمان

قال الصاحب المؤمن: ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾

وأعلن إيمانه قويًا أمام غرور الجاه والمال. ولم يهتز هذا الإيمان أمام زهرة الحياة الدنيا وزينتها. فالمؤمن يحس قدرة الله في كل ما خلق الله: الأرض. الماء الزرع. الإنسان.. هذا الكون الكبير.

كل ما حول المؤمن ناطق بقدرة الله لأنه ليس بينه وبين رؤية آثار هذه القدرة حجاب. حجاب من الغرور أو الغفلة أو التكاثر في الأموال والأولاد.

من أجل ذلك قال: (لكنا هو الله ربى) ومعناها اللغوى لكن أنا شأنى هو الله ربى. أى إن شأنى أن أعترف بأن الله هو ربى.

- لكن: استدراك على قول الظالم،واستعلاء بالإيمان أنا المدغمة فيها تدل على اعتزازه بأنه المؤمن.
- هو: الفاصلة هنا مزيد من التأكيد كقولك: إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين. الله: لفظ الجلالة الذى لا يشاركه فيه من تدعون من الآلهة أو هو الله الذى به أؤمن، وبه تجحدون.
- ربى: الذى ربانى ورعانى. وضمير المتكلم المتصل يدل على القرب وشدة الاتصال، .وفى التركيب قصر صفة ربوبية الله على نفس المتكلم بالنسبة لمخاطبه، أى: أن الله هو ربى أما أنت أيها الظالم لنفسه – فتعبد آلهة غير الله. وهذا القصر مزيد من التأكيد.

كل هذه الجوانب جاءت في الآية تساند بعضها بعضا لتأكيد إيمان المؤمن وثباته أمام مغريات الحياة واستطالة الغنى بغناه،وصاحب الجنة بجنته.

يقول الرجل الصالح ﴿ وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾

وفيها اعتزاز آخر. وتأمّل هنا كيف كرر لفظ ربى بعد أن جاء في صدر الآية (لكنا هو الله ربى) فهو لا يعدل عن هذا الإيمان، ولا يشرك بربه أحدا.

ولم يقف الصاحب المؤمن عن حد إدانة الكفر والاستعلاء وإنما فتح لصاحبه الظالم لنفسه طريقا إلى الإيمان إن شاء سلكه.

والطريق يسير: أن لا يقف عند ظواهر الأشياء التى يملكها،ولكن يمد بصره إلى الحقائق وراءها،ويؤمن بالمالك الحقيقى لهذا كله. هو الله سبحانه وتعالى ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأعراف: ٥٤).

ونتابع الآية الكريمة: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾

وهذا عطف إنكار على إنكار. كان عليك وأنت تدخل هذه الجنة ألا تقول ما قلت وهو ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ ثلاث جمل كل واحدة منها درجة في الكفر. لم يكن لك أن تقول ذلك. وإنما عليك أن تقول إذا دخلت جنتك: ماشاء الله لاقوة إلا بالله، فهذه الجنة مشيئة الله: أرضها وماؤها وزرعها وثمرها.

وصدق الله العظيم: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ(١) ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ(٢) ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ(٣) أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا(٤) فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾

(الواقعة: ٦٣- ٧٠).

نعم: يا ربنا: لا نقدر على إيجاد القوة التى تنبت الزرع في الأرض، ولا الماء النازل من المزن. وكل ما خلقت هو مادة رزق وإيمان معا. غذاء لأرواحنا وعقولنا وأجسادنا.

---

(١) تفكهون: تتعجبون.
(٢) مغرمون: مهلكون بهلاك أقواتهم.
(٣) المزن: السحاب الممطر.
(٤) أجاجًا: ملحًا.

هذا هو طريق الإيمان. وتأمل قول الله: ((لا قوة إلا بالله))

مرد جميع القوى التى تراها والتى لا تراها إلى الله خالق كل شىء.

وكأن المؤمن يقول لصاحبه: رد المشيئة إلى الله. ورد القوة إلى الله،ولا تعرض نفسك وثمرك وجنتك لغضب الله عليك.. ولاتقف بقامتك الهزيلة أمام قوة الله وجبروته،وإنما اسجد في محاريب فضله وقدرته وقوته..

وهل كل طغيانك أنك قارنت نفسك بى وبغيرى ممن هم دونك في المال والولد.. هذا كل طغيانك.. بل إنك بمنطقك هذا لو نظرت حولك – وأحسب أن الآية تحمل ذلك والله أعلم لرأيت من هم أغنى منك وأكثر تواضعا لله تعالى. وما من غنى إلا ومن حوله من هو أغنى منه ومن هم دونه مالا وولدا. كل إنسان منا يقف على نقطة في هذا الخط. ولكنه ليس الخط الوحيد في مقياس الإنسان، هناك خطوط كثيرة؛ خط الإيمان. خط العقل، خط العلم، خط الأخلاق، خط الصحة.. كثيرة هى الموازين، وسبحان من قسم هذا كله على عباده ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

يقول الصاحب المؤمن: ﴿ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴾ ولكن هل وضعت قولى هذا في ميزانك: ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ هل وضعت القلب المؤمن الخاضع لله في كفة، والقلب الجاحد الكافر في كفة ورأيت النتيجة؟ إن جنتك وزروعك وماءك وولدك و مالك إذا أضفت إليها الجحود أصبحت هشيما تذروه الرياح.. فحصِّن جنتك وولدك وزرعك بالإيمان فإنه أقوم قيلا.

لم تقل الآية أن هذا الصاحب المؤمن لم يكن يمتلك شيئا، أو لا يجد قوت يومه، أو محرومًا من المال والولد.. ولكنها ذكرت استطالة الغنى بالفرق بين درجتين في الغنى.. ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴾.. أقل تفيد الوجود الأقل لا الانعدام.. وبهذا يبدو طغيان هذا الطاغى. فمالك وصاحبك تستطيل عليه لأنك تملك أكثر منه؟.

ولكن ألا ترى في دنيانا التنافس القاتل على من يملك أكثر؟ وما أخطر (أكثر) هذه.. فليس لها حدود. وصدق رسول الله ﷺ: (لو أن لابن آدم واديًا من

ذهب أحب أن يكون له واديان ولن يملأ فاه إلا التراب. ويتوب الله على من تاب) متفق عليه رواه ابن عباس وأنس بن مالك ﷺ. أي لا يزال حريصًا على الدنيا حتى يموت ويمتلىء جوفه من تراب قبره وقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: (إن مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها) (متفق عليه. رواه أبو سعيد الخدرى).

وتوجه الصاحب الصالح إلى ربه داعيًا وإلى صاحبه محذرًا وهو يقول: ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ۝٤٠ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴾

دعا ربه. وتأمل هنا تكرار لفظ ربى للمرة الثالثة، أن يؤتين خيرا من جنتك. فهذه قدرة الله تعالى. وليست جنتك هذه عليا الجنان ولاخيرها. جنة فوقها جنات ودونها جنات. وعطاء الله لا ينفد.. وهذه الجنة تأتى بصدق التوجه إلى الله. بالعمل الصالح. بالسعى. قد ترانى أقل منك مالاً وولدًا ولكن إذا ربيت أولادى على الإيمان والاستقامة. وحفظت مالى بأن أكسبه من حلال وأنفقه في حلال وأؤدى حق الله فيه، وأتعاون مع أولادى على تنمية ثروتى بالخير.. فستكون النتيجة ـ مع دعائى ربى ـ بأن يوسع على والأمر كله لله ستكون النتيجة أن يؤتين الله خيرا من جنتك هذه التى نثرت في جوها سموم الجحود. ولوثت أرضها بخطوات الكبر والبطر وماءها بأن تنفس فيه صدرك الكفور..

احذر أيها الصاحب التلوث الذى نثره الكفران في جنتك. فقد يأتى الخطر من السماء حسبانا عاصفة صاعقة أو جراد تحمله الريح إليك لا يبقى ولايذر. أو تتلف أرضها فلا تصلح لزراعة فهى صعيد زلق. أو يغور الماء في الأرض فلا تستطيع أن تتبعه فيها.. أخطار ثلاثة رئيسة إذا رأيت فيها ما يمكن أن تتعرض له الجنة.. ففيها أيضا دلالة على معرفة العبد الصالح لما يمكن أن تتعرض له الجنة.. وهى معرفة قادته إلى الإيمان وثبتته في قلبه.

٢٨- وأحيط بثمره

يقول الله تعالى في قصة صاحب الجنتين: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ

أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾. صدق الله العظيم

فى جملة واحدة من كلمتين وأحيط بثمره.. انقضى الأمر. الفعل مبنى للمجهول. والمعلوم عندنا جميعا هى إرادة الله وحكمته. ولكن كيف تجلت هذه الإرادة مع ذلك الظالم نفسه؟ هل جاء حسبان من السماء،عاصفة اقتلعتها. إعصار فيه نار فاحترقت؟ كلمة "أحيط" تحمل إلى النفس أن كل شئ في الحديقة ضاع. وكلمة "ثمر" منسوبة إلى الرجل،تحمل إلى النفس شيئا أكبر من الجنتين: المال والولد.... كل الثمر أحيط به. وقف الرجل فردا كأنه في دنيا الناس يمثل صورة من الحساب نقرؤها في قول الله تعالى: ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ (مريم: ٩٥).

حاول أن تُجمّع أطراف الصورة في خيالك، بادئًا بالمشهد الأول ويجرى تصوير القرآن له هادئا متأنيًا، كأنما تنتقل العين فيه في رحاب الجنتين نخلاً وعنبًا وزرعًا وماءً وثمرًا:

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾.

ثم استحضر بعد هذا بغى صاحب الجنتين، وقد دخل جنته وهو ظالم لنفسه، وكفره برب النعمة خالق السماوات والأرض واستحضر إيمان المؤمن الذى نصحه وحذره. ثم تهب العاصفة أو تنقض الصاعقة أو يندلع حريق.. فإذا المنظر غير المنظر. ضاعت الخضرة والنضرة وأبرز الله آيته في كلمتين. وأحيط بثمره..

ولنقترب من الظالم نفسه، وقد ذهب عنه المال والجاه، لنراه واقفًا يقلب كفيه على ما أنفق في جنته،وها هو يراها بعد الإنفاق عليها خاوية على عروشها. والعروش هى السقوف.. سقطت سقوفها. تحطمت أو احترقت.. وسقط معها الغرور والكفران. ولنستمع إلى هذا الظالم وقد ذهب الظلم، والغنى الذى كان. وهو لا

يجد حيلة ولا يهتدى سبيلاً إلا أن يعود إلى ربه تائبًا نادمًا حين لا تنفع الندامة.. فلن ترد جنته.. إلا أن يتوب توبة نصوحًا ويبدأ من جديد. أما الآن وأمام عدل الله وحكمته وشدة أخذه الظالمين، نسمع صوت الندم:

﴿ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴾

اعترف أنه أشرك. واعترف بأنه كان يعرف الحق وينحرف عنه. هذا مشهد في الدنيا. أم هو مشهد في الآخرة.

ثم يعقب ربنا ـ جل وعلا ـ على القول الذى أجراه على لسانه النادم:

﴿ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرٗا ﴾.

وهنا نجد ثنائية أخرى: إمّا أن الرجل كان معتمدًا على قومه أو ولده. فهذه واحدة. أو كان معتمدًا على قوته وإرادته الذاتية فهذه ثانية. ولقد نفى الله عنه الأمرين معًا. وبين لنا أن فقد الحيلة في نفسه وأهله جميعًا. لا يملك إلا الندم وتقليب الكفين. ثم يقول ربنا:

﴿ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ﴾

والولاية النصرة. نصرة الله كانت للمؤمن. أما الظالم فلم يكن منتصرا

وتحمل الآية أكثر من معنى.

هنالك الولاية لله وهو الحق. أو هنالك الولاية الحق رأى النصرة الحق لله. كلمة الحق تأتى في الأولى صفة لله تعالى وفى الثانية صفة للولاية. والولاية من الله. والمعينات قريبان. هو خير ثوابًا وخير عقبًا.. وهذه الثنائية تحمل الدنيا والآخرة معًا. قد يكون بعض الثواب في الدنيا وبعضه في الآخرة. قد تكون عقبى الإيمان في الدنيا وفي الآخرة. وفي هذا نقرأ قول الله تعالى. والقرآن يفسر بعضه بعضًا:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ

ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٦-١٤٨)٠

ولنلاحظ في الآية أن لفظ الحق في قوله تعالى: هنالك الولاية لله الحق، مصدر يستوى فيه المذكر والمؤنث والإثنان والجمع. فيقال: قولك حق. وكلمتك حق. وأقوالكم حق.

❁❁❁

وبعد قصة صاحب الجنتين يضرب الله لنا مثلاً آخر: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمًا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴾

وهذه ثنائية أخرى نقرؤها بعد الثنائية السابقة. وأول ما نلاحظه في الآية الأولى أن العطف بين أفعالها بالفاء التى تفيد العطف مع التعقيب. وتحمل إلى النفس إحساسًا بسرعة الأحداث: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمًا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴾.

نزول المطر. الإنبات. جف النبات،نسفته وحملته الرياح. هذه دنياكم أيها الناس. ثم استحضر الوصف الهادئ للجنتين في المثال السابق: الأعناب. النخل الزرع. الماء المتفجر. الثمر.. كل هذا التفصيل يطويه هذا المثال السريع الإيقاع كأنما يقول لنا جميعا: هذه دنياكم فاعتبروا.

وهذه من الملاحظات التى تستوقف النظر في الدراسة االقرآنية: سرعة إيقاع الأحداث. وارتباط درجة السرعة بالهدف الذى تتوخاه الآية الكريمة، والفكر الذى تعطيه، والإحساس الذى تغرسه في النفس المؤمنة.

فى آيات أخرى ترى الإطناب والتفصيل في وصف نزول المطر واقرأ في هذا قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ (النور:٤٣-٤٤)

هنا الوصف هادئ كأنك تعيش مع قطرة الماء وهى في السحاب تتجمع،ثم تسقط.. وتحس الجبال بروعتها وقممها مخازن الماء ثم تحس هدير الماء متدفقا أو ترى سيف البرق قد يشق ظلمة الليل.. وهذا المطر يصيب الله به من يشاء ويصرفه عمن يشاء..

هذا الوصف الهادئ المفصل لا تحسه في الآية التى تجد بين يديها ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾.

لماذا ذكرت هذين المثالين؟ المثال المجمل هنا والمفصل في سورة النور؟ ذلك لأبين أن الآية القرآنية لاتؤخذ معزولة عن السياق القرآنى العام. لاتؤخذ معزولة عن الروح العامة للقرآن. أنت في مواقف محتاج إلى النظر إلى الدنيا نظرة تأمل واعتبار وشكر لله على نعمته. وأنت محتاج في موقف آخر أن تنظر إليها كأنها قصة سريعة عابرة في عمر الكون. وأن حياتنا فيها محدودة. وأن العمل الصالح فيها هو كل زادك منها لآخرتك.

ليس في هذه الآيات تهوين للدنيا، ولا امتهان لها. وإنما فيها أن تضعها في حجمها القرآنى. وأن تكون لك القدرة على أن تنظر إليها من زوايا متعددة ومن آفاق متعددة،فإذا هى كبيرة حين تعداد نعم الله،وإذا هى ضيئلة إذا دخلت نفسك منها الفتنة. والآيات الكريمة كالأدوية.. كل منها شفاء لحالة معينة. وعون على تجاوز موقف معين

٢٩ – المال البنون والباقيات الصالحات

يقول الله تعالى: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (الكهف: ٤٦).

ونسأل أنفسنا عن وضع هذه الآية في سياق سورة الكهف بأى شىء استطال المشركون على المسلمين، والأغنياء على الفقراء؟

لا ننسى أنهم قالوا عن المصطفى وهو سيد ولد آدم إنه ((أبتر)) لا عقب له، ذلك بعد أن اختبره الله تعالى بموت أولاده الذكور صغارًا وكانوا يعلمون أنه محدود المال، فكان ما يعيرونه به الفقر، وسجل القرآن اعتراضهم ورد عليه: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ ؟

ورحمة الله هنا هى الرسالة، وقد قسمها الله تعالى لرسوله ﷺ وهو سبحانه الذى اختار له اليتم والعيلة.. فكان ـ من بعد ـ أبًا لكل يتيم، وعائلاً لكل محتاج، ما أعانه الله على ذلك بمال يأتيه، أو توجيه إلى عمل يوجه المحتاج اليه..

كان هؤلاء المشركون يسيرون في مكة معتزين بأموالهم وأولادهم ويتعالون على الرسول والذين معه.

والمال زينة. والبنون زينة. وهما من فضل الله على عبادة. ولكنهما كأى فضل يمكن أن يحسن الإنسان استخدامه أو يسيىء تمامًا كحواس الإنسان: السمع والبصر والفكر.. يمكن أن يحسن الإنسان استخدامها أو يسيىء، ويكون من ورائها ثواب أو عقاب.

لقد سجلت الآية ظاهر الأمر فقط: المال والبنون زينة الحياة الدنيا، والزينة في ذاتها وفى حدودها الكونية أو الشرعية مقبولة: فمن الزينة الكونية قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ (الصافات: ٦).

وقوله تعالى في سورة الملك: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ (الملك:٥)
وفى سورة ق ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن

obeikandl.com

فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾

فهذه الآيات تربط بين الزينة والبهجة والتأمل والعبودية والإنابة إلى الله تعالى.

وفى آيات آخرى نقرأ عن الزينة المكروهة والمحرمة:

- ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ (فاطر: ٨).
- ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ (غافر: ٣٧) أى فى ضياع وهلاك.

ونحن مأمورون أن نتجمل للعبادة ولبيوت الله فى حدود ما بين الله ٠ يقول تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأعراف: ٣١).

وأنت تقرأ هذه الآية: المال والبنون زينة الحياة الدنيا. مع قوله تعالى فى أوائل سورة الكهف ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾.

فالمال والبنون زينة ومادة اختبار وابتلاء فى نفس الوقت يقول الله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

(الأنفال: ٢٨).

والولد الصالح محمود فى كتاب الله وفى الحياة. ونقرأ فى وصف سيدنا يحيى عليه السلام من وقت أن كان بشارة لأبيه زكريا الشيخ الكبير: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾.

إلى قوله تعالى مخاطبًا الابن الصالح ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾

(مريم: ١٢ – ١٥).

ثم نقرأ الآية ﴿ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ مع الآية التى تسبقها مباشرة، وهى قول الله تعالى: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴾. فتحس وجه شبه بين بذر النبات ونموه وتفتحه زهرًا وينعه ثمرًا، ثم ذبولاً وجفافًا وهشيمًا تذروه الرياح، وبين حياة الإنسان، المال والبنون كنمو النبات: بذرًا وتفتحًا.

الأبناء صغارًا ثم شبابًا مزدهرًا ثم كهولاً وشيوخًا. دورة حياة بدأت بذرة ثم إلى الأرض تعود..

كذلك المال تكتسبه ويزداد ويصبح زينة الحياة، فإذا أنفقته رأيت الشبه بين الإنفاق واستهلاك ثمار الحقل أو الحديقة.

ولكن وراء هذه الدورة السريعة لحياة النبات تجدد وبقاء، ووراء دورة المال نمو حقيقى إذا ما أدخر منه الإنسان عند الله..

فدورة الحياة سريعة من ناحية وبطيئة أو متجددة من ناحية أخرى كذلك النبات،كذلك الأبناء.. بقاؤها ما فيها من بذور صالحة لإنبات جديد أو ادخار صالح لاستثمار جديد، أو عمل صالح يكون أبقى من عمر الفرد في الحياة..

وبهذا يجمع الإسلام بين النظريتين: أن يملك المال ولا يملكك المال، وأن يكون لك الولد ولكن تحمل في قلبك سر الخليل إبراهيم عليه السلام، فيكون عندك الاستعداد أن تقدم ولدك فداء دينك أو وطنك، وأن تقدم نفسك إلى التضحية مؤمنًا أن نار النمرود ـ إن اشتعلت ـ هي المعبر إلى جنة عرضها السماوات والأرض.

من أجل ذلك قال الله تعالى:
﴿ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴾

الباقيات الصالحات صفتان لموصوف محذوف تقديره: الأعمال الباقيات الصالحات وبقاؤها أى لازوال لخيرها.

وكان مقتضى الظاهر في ترتيب الوصفية أن تقدم الصالحات على الباقيات ففى أكثر من آية تحل الصالحات محل الأعمال الصالحات من ذلك قوله تعالى:

- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلٗا ﴾ (الكهف: ٣٠).
- ﴿ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدّٗا ﴾ (مريم: ٧٦).

وتوصف الأعمال بالصالحات ولا يقال الأعمال الباقيات.. فلماذا جاء في هذه الآية قول الله تعالى: (والباقيات الصالحات) بتقدم الباقيات على الصالحات.

ولعل هذا للتنبيه على أن ما ذكر قبله ليس بباق وهو المال والبنون[1] فكان هذا التقديم قاضيًا لحق الإيجاز، بقوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴾ (الرعد: ٢٦). وقول الله تعالى في التمثيل السابق: ﴿ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ يفيد الزوال فهنا ثنائية ومقابلة بين الزوال البقاء. ونماذج لكل منها.

وتقديم المال على البنين في الآية: لأنه أسبق حضورًا لأذهان الناس، ويرغب فيه الصغير والكبير والشاب والشيخ ومن له من الأولاد ما قد كفاه ومن دون ذلك.

وقول الله عن الباقيات الصالحات ﴿ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴾ يفيد ثبوت الخيرية في الثواب وتحققه عند الله،وهو المأمول الأكبر.

أما الأمل في المال والولد فهو عرضة للزوال بطوارىء الحياة.

---

(١) التحرير والتنوير ١٥-٣٣٣.

وهنا ثنائية أخرى بين أمل مشكوك فيه مهما يكن حاضره بين يديك من المال والولد، وأمل ثابت في حسن المثوبة والجزاء عند الله.

وقبل الانتقال إلى الآية التالية أود الوقوف قليلا عند ربط هذه الموازنة بين (المال و البنون) و(الباقيات الصالحات) وبين قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

إن الدراسة المفصلة لهذه القصة أرجو أن أعرض لها عند تحليل لقصة إبراهيم وكيف أنها تمثل بصورة عملية مرحلة هامة في الفكر الدينى باعتبارها نقطة الانتقال من القرابين البشرية إلى القرابين الحيوانية.. وقد كانت القرابين البشرية معروفة في التاريخ القديم، فنسختها قصة إبراهيم وإسماعيل عمليًا، وبينت أن إبراهيم وإسماعيل كانا على استعداد لتنفيذ الرؤيا، ولكن الله الرحيم بعباده فدى إسماعيل بذبح عظيم وأكرم الوالد الشيخ وولده اللذين أسلما لأمر الله، فلم يكن الفداء خوفًا ولا تراجعًا، وإنما كان رحمة من الله بالإنسانية في مشهد يقوم به أبو الأنبياء وولده.

ولقد كان هذا المشهد يمثل الإيمان كله، والحب كله، والذى مهد للفداء والانتقال من عهد القرابين البشرية إلى الحيوانية ولكن الفداء ظل حيًا في نفس كل من إبراهيم وإسماعيل وهو مطلوب من أتباع ملة إبراهيم:

﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (الحج: ٧٨).

إن كل مؤمن يحمل في قلبه هذا القبس الإبراهيمى وفى تربيته الإيمانية، ينبغى أن يكون على استعداد دائم لتضحية إسماعيل. وإسماعيل هنا مفهوم لا شخص محدد. ولنضرب مثالا:

ذلك الأب المؤمن بربه والمحب لوطنه وقومه. إنه يُعلّم ولده ليكون في خدمة عقيدته ووطنه. فلنر هذا الابن فردًا في القوات المسلحة: برًا أو بحرًا أو جوًا. فلنره في قوات الأمن مسئولاً عن مكافحة الجريمة. فلنره في مصنع من مصانع الذخيرة.. إن الأب الذى يعد ولده لخدمة عقيدته ووطنه ويعلم أن ولده في موضع

الخطر، وأنه معرض للموت في كل لحظة، يحمل هذه نفحة من إبراهيم خليل الرحمن في نفسه ويغرس روح إسماعيل عليه السلام في ولده. والإثنان أسلما لله تعالى.

وفى هذا يصبح الولد من الباقيات الصالحات. هو زينة الحياة الدنيا وهل هناك زينة أجمل من الشباب المؤمن العامل للوطن والعقيدة؟.

والمال المرصود للخير، المال المزكى المكتسب من حلال. والمتجه إلى الحلال والمعد للإنفاق في سبيل الله.. هذا المال يحمل الروح الإبراهمية أيضًا.

وبهذا عندما تنفخ هذه الروح في حياة الأسرة يتحول مالها وأبناؤها من مجرد زينة الحياة الدنيا إلى جزء من الباقيات الصالحات بل يصبحان زينة وباقيات صالحات معًا.

ولقد كانت أموال صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام – والذين اتبعوهم بإحسان زينة المال وباقيات صالحات. وكذلك الصالحون من أبنائهم كانوا زينة الحياة الدنيا وباقيات صالحات. تركوا لنا العلم النافع والقدوة الصالحة. فلا تعارض بين الأمرين إلا إذا جعلت نفوسنا المال والبنين مقدمين على أمر الله وطاعته، والأمل القريب فيهم يحجب عنا الأمل الباقى في أن نكون معهم ويكونوا معنا على طريق الله وطاعته مبدؤها أمر الله ومنتهاها رضوان الله ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ (الفجر ٢٧ – ٣٠).

٣٠ – ولا يظلم ربك أحدا

يقول الله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ